المجلة السعودية للدراسات التربوية
والنفسية
الإصدار الرابع عشر
المجلد (٥) العدد (٣)
٢٠٢٤ (١٥-١)

دور الفكرة الدينية في المشروع النهضوي عند مالك بن نبي

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

سامية معتوق

جامعة أم البواقي ، الجزائر

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٣٠ نوفمبر ٢٠٢٤

الملخص

إن حضور مشروع مالك بن نبي الفكري في بحثنا هذا يتصل مباشرة باهتمامه بالتأصيل لمشكلة الحضارة، حيث يظهر حرصه على وضع مشروعه النهضوي تحت عنوان جامع هو "مشكلات الحضارة"، وتلك العنونة الكلية لكتبه دالة على أن انشغاله الفكري كان مركزا على هاجس إشكالي يطلب فهم كيف تبدأ الحضارة وتولد؟ وكيف تصير وتزول؟ ثم كيف يمكن استعادتها بعد الزوال؟ فكانت جهوده وأعماله الفكرية تنصب على البحث عن حل لهذه الإشكالات، ومحاولة البحث عن مدخل منهجي مناسب لإعادة بناء حضارة من جديد، محاولا التأكيد على أن الحضارة هبة تتساوق في تحقيقها، تاريخيا، القيم العليا المستمدة من شرعة السماء، هذه الأخيرة التي تظهر كمعطى أولي أو رأسمال رمزي يعطي ويحدد القيمة الاجتماعية للمعادلة (الإنسان، التراب، الوقت).

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي؛ حضارة؛ دورة حضارية؛ فكرة دينية؛ شبكة العلاقات الاجتماعية؛ ثقافة.

Abstract

The presence of Malek Bennabi's intellectual project in our research is directly related to his interest in rooting the problem of civilization, as it shows his keenness to place his renaissance project under a comprehensive title, "Problems of Civilization".The overall title of his books indicates that his intellectual preoccupation was focused on a problematic obsession that required understanding how civilization begins and is born. How does it come and go? Then how can it be restored after it disappears? His efforts and intellectual work were focused on searching for a solution to

these problems. And trying to search for an appropriate methodological approach to rebuild a civilization again, trying to emphasize that civilization is a gift whose realization competes, historically, with the higher values derived from the law of heaven, the latter of which appears as an initial given or symbolic capital that gives and determines the social value of the equation (Man, soil, time).

Keywords: Malek Bennabi; Civilization; course is civilized; religious Thought; Network Of Social Relations; the culture

*** مقدمة**

والعلاقة السببية بين الحدثين: القرآن والحضارة باديةٌ بشكل صارم عبر تلازمهما؛ فالفكرة الإسلامية هي التي طوّعت الطاقة الحيوية للمجتمع الجاهلي.

*** مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص:٥٢**

إن المتأمل في أعمال مالك بن نبي، سيجدها تنصب على حل مشكلة الحضارة، ومحاولة البحث عن مدخل منهجي مناسب لإعادة بناءها من جديد، ومن أكثر النصوص التي كشف فيها ابن نبي عن علاقته بهذه الفكرة، ومدى تمسكه بها، وكيف أنها تمثل الفكرة المركزية في خطابه الفكري ومشروعه الإصلاحي، النص الذي يتحدث فيه عن حاله بقوله: "إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن، هي مشكلة الحضارة".* (ميلاد، ١٩٩٨، صفحة ٧٣)

وتتجلى أصالة وقيمة ما طرحه مالك بن نبي من رؤى فكرية ومنهجية في فلسفة الحضارة في كونه –وفي محاولته لإيجاد معالجة للمشكلة الحضارية–ركز على محاولة استخلاص قوانينها الكلية الناظمة لحركة صيرورتها الصاعدة والمتقهقرة للإفادة منها للحاضر والمستقبل.

ويمكن التعبير عن هذا الجانب السنني مما قدمه مالك بن نبي في تحليل وتفسير الظاهرة الحضارية، ومنهجية بنائها، والتي تفرض نفسها كنسق متكامل أو منهج قائم بذاته. فرغم أن هذه الأفكار موجودة قبله، وكل في صورة جزئية، إلا أن مالك بن نبي وظفها توظيفا مترابطا بشكل متكامل لكل: المراحل الثلاثة للدورة الحضارية، المعادلة الحضارية... وغيرها في نسق تحليلي–تفسيري لكيفية عمل القوانين التاريخية والنفسية والاجتماعية وتأثيرها في حركة المجتمع والحضارة.

وينطلق في ذلك من عدة ملاحظات تاريخية واجتماعية ومنهجية للوقوف وقفة تدبر على مدى قوة الفكرة الدينية في البناء الحضاري. وإذا كانت الحضارات قد انبعثت بالقوة الفاعلة للدين، فإن الدين الذي رامه مالك بن نبي في كل تصوراته الفكرية هو الدين الإسلامي كمخزون للقيم، قادر على استعادة دور الإنسان مبرأ من ثقل الحضارة–

* في الحقيقة لم أعثر على هذا القول من أي من كتب مالك بن نبي التي تم الاطلاع عليها، مما اضطرني لنقلها من المصدر أعلاه، الذي يعتبر مصدر ثانوي، في سياق الحديث عن فكرة أساسية من أفكار مالك بن نبي، والتي هي تحديد لجوهر الأزمات في العالم الإسلامي. ولكن هذا لا ينفي أنه ومن خلال اضطلاعي تبين أنه القول مقتطع من نص حوار أجراه مالك بن نبي لمجلة الشبان المسلمين عام ١٩٧١.

الإمبراطورية، وفق سردية ترى أن الإسلام لا يقدم للعالم ككتاب وإنما كواقع اجتماعي يساهم في بناء مصير الإنسان.

وفق هذه السردية، فالحضارة-حسب المنظور المالكي-تبدأ عندما يمتد نظر الإنسان إلى أفق أعلى من يومه ومن حقبته التي يعيشها، ومن هنا يحق لنا نظريا ومنهجيا أن نتساءل عن علاقة الدين بالشروط الأولية لتركيب حضارة وفق المنظور البنابي؟ وإلى أي مدى يمكن إيجاد نوع من الإطراد بين الفرد والفكرة الدينية والتي تبعثه في نهاية المطاف إلى الحركة والنشاط؟

لنصل في النهاية إلى مستلة مركزة من كتاباته المتبصرة تتمحور حول إشكالية العلاقة (حضارة، دين، ثقافة)؛ ففي كتابه مشكلات الحضارة، وما يتمفصل تحت هذا العنوان من شحنات فكرية، قد أسهب في ذكر جوانب من هذه المشكلات حاضرة ومجتمعة للعالم الإسلامي، يماثله في ذلك مؤلفه "شروط النهضة" ومؤلفه "وجهة العالم الإسلامي"ومؤلفه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي". أما مؤلفاته "مشكلة الثقافة" و"بين الرشاد والتيه" و"ميلاد مجتمع"، فإنها تحمل في تلافيفها نماذج صنوان وغير صنوان من المعالجات تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت، لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ "حضارة"، منطلقة من افتراض أولي، وهو محورية الدين باعتباره أحد الثوابت الوجودية من جهة. وأحد ثوابت الشخصية الإنسانية ومنجزاتها من جهة أخرى. وهو يهدف في صياغة رؤيته هذه إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان وتفعيله فهو الذي يعول عليه في الانتقال من أجواء التخلف والتبعية إلى أجواء التطور والقيادة الحضارية.

*** لعنوان الرئيسي: محورية الدين في مشروع النهوض الحضاري عند مالك بن نبي**

تشكل نظرية الدورة الحضارية، المدخل الذي يمكن من فهم المنظور الذي درس من خلاله مالك بن نبي مسألة البناء الحضاري. وتحليل الحضارة، ترتكز على المبدأ الذي وضعه ابن نبي، ويتلخص في أن الحضارة يحكمها قانون الهجرة أو الدورة، والذي في حقيقته يعني استمرار الحضارة وتنقلها من مكان نفدت فيه عناصرها (شروطها) الأولية إلى مكان آخر توفرت فيه هذه الشروط، لتنطلق منها في دورة جديدة تواصل به سيرها إلى أن ينتهي التكليف وتنقضي سنة الحضارة والعمران البشري...

وفي دراسته لـــ "الظاهرة الدورية"، يصدر مالك بن نبي الفصل الأول من كتابه "وجهة العالم الإسلامي" بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠) ، ليؤسس عليها مفهومه للدورة الحضارية بكونها كل مجموعة عددية تتابع في وحدات متشابهة، ولكنها غير متماثلة، وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي دورة الحضارة؛ (بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ٢٠١٣، صفحة ٢٧) فالمجموعات العددية المتتابعة هي الحضارات المتعاقبة، وهي كلها تمثل حلقات متصلة في الملحمة الإنسانية الخالدة وهذا هو وجه الشبه بينها. أما وجه الاختلاف عن بعضها هو من حيث أن "كل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين"، (بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ٢٠١٣، صفحة ٢٧) فإذا توفرت هذه الشروط كانت حضارة، ثم أنها تهاجر

إذا ما اختل تركيبها إلى موطن آخر لتتحول إلى حضارة أخرى وفق تركيب جديد للإنسان والتراب والوقت.

فالتاريخ بشكل ما؛ هو الحضارة صعودا واستقرارا وانحدارا، تكونا وامتدادا وارتحالا؛ فالبذل والسعي في هذا التحليل يحكي تجربة الإنسان الوجودية في سبغ الطبيعة بإضافاته، تلك التي ملخصها وتجليها الأظهر هو الحضارة، حيث "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي، والحضارات المستقبلية إلا عنصر الملحمة الإنسانية من فجر القرون على نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ هبوط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها، ويا لها من سلسلة من نور، تتمثل في جهود الأجيال المتعاقبة في خطواتها المتصلة في سبيل الرقي والتقدم". (الحاج أحمنة، ٢٠٢٤، صفحة ٢٨)

تتركز المعاني السابقة دائما، باستحضار معنى الحضارة والكيفية التي تركبها، أو تتشكل وتنبني بها العناصر الثلاثة المشكلة لها، كما هو موضح في المعادلة التالية: (بن نبي، صفحة ٤٩)

منتج حضاري= إنسان+ تراب+ وقت

وتحت هذا الشكل-يجد مالك بن نبي-أن مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان ومشكلة التراب (الثروة الطبيعية)، ومشكلة الزمن الذي هو إطراد اجتماعي ضروري لإنجاز أي تركيب حضاري. وأن حل المشكلة الكلية (أي مشكلة الحضارة) يمر حتما عبر حل مشكلات هذه العناصر الثلاثة، التي تشكل الرأسمال الأولي لأي حضارة، ويتيعن حينها مواجهة المشكلات في إطارها الجزئي ارتباطا مع الإطار الكلي الذي ينظمها.

وإذا كان مالك بن نبي يعتبر تلك المكونات الثلاثة المواد الأساسية التي تبني منها الحضارة منذ فجر التاريخ، وهي عناصر غائصة في لغز ميتافزيقي، (بوكروح، ٢٠١٦، صفحة ١٤٩) فإنه ينفي عن هذه المكونات القدرة على التفاعل فيما بينها تلقائيا لإنتاج الحضارة، ويقول بضرورة وجود "عامل" يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، على النحو الذي يجري فيه التفاعلات الكيميائية الحيوية، وهذا العامل هو الفكرة الدينية التي تحدث -بحسبه-الشرارة الروحية أو الوثبة التي تجعل العناصر الأولى ديناميكية. ويستطرد في شرح الفكرة قائلا: أنه لو كان مثل هذا الوضع بعناصره الثلاثة كافيا كشرط لوجود الحضارة، فإن هذه الأخيرة تصبح مجرد ظاهرة عفوية وعامة في الكرة الأرضية كلها. ولن يطرح المشكل بالنسبة للعالم الإسلامي خصوصا، وهولا يزال بعيدا عن إيجاد الحل لمعضلته. (بوكروح، ٢٠١٦، صفحة ١٥٠)

هذا ما حاول ابن نبي أن يقيم البرهان على صحته في الفصل الموسوم بـــ"أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة" من كتابه شروط النهضة، وهو فصل استعرض فيه آراء عدد من الفلاسفة والمؤرخين من مثل: ابن خلدون، وتوسيديد، وجيزو، وماركس، وهيجل، وسبنجلر، وتوينبي... حول كيفية نشوء الحضارات وأفولها والعوامل المساعدة على بنائها،

مناقشا التفسيرات التي قدمها كل واحد منهم، ومبينا عجزها عن تفسير الظاهرة الحضارية، منتهيا في آخر الفصل إلى بيان "نظريته" في الحضارة القائمة على الفكرة الدينية عاملا أساسيا وفاعلا فسر به ابن نبي قصة الإنسان مع الحضارة وجودا قبلها ودخولا إليها وخروجا منها، وهذا ما يفصح عنه قوله: "فدورة الحضارة إذن تتم على هذا المنوال، إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة (...). كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة الجماح (...). وقبل بدء دورة من الدورات أو عند بدايتها، يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة، فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا وسلبت منه الحضارة. فيدخل في عهد ما بعد الحضارة". (بن نبي، شروط النهضة، ٢٠١٢، صفحة ٤٣)

وفي أتون هذه الحقيقة الكونية، يعتبر مالك بن نبي الفكرة الدينية العامل المحرك لأي مشروع حضاري في التاريخ، وأحد العناصر الأساسية للمعادلة الحضارية التي يقدمها بالشكل التالي: (النقيب، ٢٠١٧، صفحة ١٥٧)

الحضارة= [(إنسان+ تراب+ وقت) العامل الديني]

وبهذا لا يمكن تصور تجمع من التجمعات البشرية خاليا من آثار التدين في مرحلة من مراحل وجوه التاريخي؛ فالظرف الاستثنائي، والذي يسجل نقطة الانطلاق في تاريخ مجتمع معين، أي ميلاد مجتمع، وفق المنظور البنابي، يتفق في الحقيقة مع ظهور فكرة دينية. وهنا لابد من التأكيد أن مقصوده لا يقتصر على الدين الإسلامي فحسب، وإنما أي دين أو فكرة غيبية يمكن أن تكون بمثابة مصدر يوجه الطاقة البشرية ويرشدها لتنجز مهمة تاريخية محددة. على هذا النحو يقرر أننا حينما نتأمل القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو مطبوع في النظام الكوني، قانونا خاصا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية. (بن نبي، الظاهرة القرآنية، ٢٠٠٠، صفحة ٣٠٠)

ثم يرجع مالك بن نبي للتاريخ كوثيقة لتوثيق التحولات التي شهدها البشري، فيؤكد صحة هذا الافتراض (أي دور الدين) في تفسير أصل منشأ الظاهرة الحضارية؛ فيقول في هذا السياق: "كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي وجد سطورا من الفكرة الدينية، ولقد أظهر علم الآثار دائما –من بين الأطلال التي كشف عنها– بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيا كانت تلك الشعائر". (بن نبي، الظاهرة القرآنية، ٢٠٠٠، صفحة ٦٩)

وبالفعل، ففي معظم الأحيان كان ظهور الأديان سابقا لظهور الحضارات الكبرى .وقد وجدت هذه الأخيرة في الأماكن التي تشكل فيها اقتصاد زراعي في درجة من التطور يسمح باستقرار تجمع بشري وتقوية ذلك التجمع بعبادة ما، بعد أن كانوا في الماضي منقسمين إلى عائلات أو جماعات أو قبائل. وهذه العبادة أو الفكرة من شأنها أنْ توجِد بين أعضاء الجماعة شعورا جماعيا ووعيا بوجود مصلحة مشتركة. وتبدأ القرى والمدن بالظهور، وتكون خاضعة لقوانين وقواعد

ومؤسسات بصبغة روحية غالبة. وتظهر الفنون، وتتسع رقعة الدولة شيئا فشيئا لتشمل الحضارةُ الناشئةُ أصقاعا واسعة وأجناسا مختلفة توحِّد بينها المعتقدات. وتتشكل هذه الأصقاع في شكل كيانات سياسية واقتصادية وعسكرية سيُطْلَقُ عليها اسم (سومر) أو (مصر الفرعونية) أو اليونان أو الهند القديمة، أو الصين، أو المايا، أو الأزتيك، أو الإينكا، أو الإسلام أو الغرب... (بوكروح، ٢٠١٦، صفحة ١٥٦)

ومن أجل التأكيد على ذلك الرأي والتدليل عليه بالواقع التاريخي في سياق أكثر حداثة، يعقد مالك بن نبي فصولا كاملة، خاصة في كتابه "شروط النهضة"، لتحليل دورتين من دورات الحضارة، هما: الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية لاستخراج السر الذي دفع بكلتا الحضارتين إلى مسرح التاريخ، وتحديد الموقع الذي يمثله الدين في حركة الحضارة، وهو بتحليله لهاتين الدورتين ينتهي إلى تأكيد أن السر الكوني الذي يركب العناصر الثلاثة الأساسية للحضارة (أي الإنسان والتراب والزمن)، ويبعثها قوة فاعلة في التاريخ هو الدين. (بن نبي، شروط النهضة، ٢٠١٢، صفحة ٤٣)

فكلتا الحضارتين تنطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص، وتوجهه نحو غايات سامية، بل إن ابن نبي يرى أن هذا القانون الدافع للحضارة لا نجده في الحضارتين: الإسلامية والغربية فحسب، بل يتعداه إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ الإنسانية، كالديانة البوذية في الحضارة البوذية، والبرهمية في الحضارة البرهمية. أي أن كل حضارة في أساسها ذات مبعث ديني. ولا يمكن للحضارة أن تظهر في نظر ابن نبي إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شريعة ومنهاجاً، أو هي -على الأقل -تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام. (بن الحسن، ١٩٩٩، صفحة ٩٨)

وفي السياق نفسه يقول ابن نبي" إن كل هذه الحضارات المعاصرة لنا، قد شكلت تركيبها التآلف الأصلي للإنسان والتراب والزمن، مهد فكرة دينية ...فالفكرة الدينية تتدخل إما بطريقة مباشرة، وإما بوسطة بديلاتها اللا دينية نفسها، في التركيبة المتآلفة لحضارة ما، وفي تشكيل إرادتها، فهل يتعين علينا أن نستخلص في ذلك، أنه يلزمنا أن ننتظر أو نستثير وحي فكرة دينية جديدة، في كل مرة توضع في مواجهتنا مشكلة نهضة؟". (بن نبي، القضايا الكبرى، ٢٠٠٠، صفحة ٦٠)

وعليه يرى مالك بن نبي أن هناك عاملا جوهريا تتحدد به ومن خلاله كل الشروط اللازمة لتركيب الحضارة، وهو العمل بموجب العقيدة الدينية، ويقول في هذا السياق: "وفي رأيي أن السبب في ذلك أن هذه العوامل تتطلب إلى جانبها عامل آخر لا غنى عنه... هو العامل النفساني، هذا العامل الذي يصطلح على تسميته بالعقيدة، والبعض الآخر يسميه أيديولوجيا. فنحن أما قضية واضحة وضوحا كاملا. إن الشروط اللازمة لتكوين الحضارة موجودة بين أيدينا، بمعنى أن عندنا أكرم وأفضل العناصر الموجودة في العالم، وعندنا أخصب المساحات الترابية، وعندنا الساعات الزمنية الكافية للإبداع والابتكار، ويتبقى علينا أن نفكر ما الذي ينقص هذه الأمور". (الخطيب، ١٩٩٣، صفحة ١٢٩)

بعد هذا التناول العام لتأثير الفكرة الدينية على النهوض الحضاري، يحيلنا مالك بن نبي إلى نظرته واعتقاده عن الدين الإسلامي- على وجه التحديد- فهو يؤمن ويعتقد بأن الدين الإسلامي يحمل كل المقومات التي تغير حياة الفرد ومنها حياة الجماعة؛ فعناصر الحضارة (إنسان، تراب ووقت) كانت موجودة في شبه جزيرة العرب، ولكن تلك العناصر كانت تفتقر للمحرك الأساسي لها، وهو ما أشار له بقول: " ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا يم يكن بها قبل نزول الوحي إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجذبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك كانت العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت راكدة خامدة. وبعبارة أصح، مكدسة لا تؤدي دورا في التاريخ؛ حتى إذا ما تجلت حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء-كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن- نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه وعليه العالم". ويستطرد قائلا: "فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن والرق". (بن نبي، شروط النهضة، ٢٠١٢، صفحة ٥٧)

وشرح مالك بن نبي منحى صعود الحضارة الإسلامية وربطه بالمرحلة الأولى (الروحية) التي امتدت من غار حراء إلى معركة صفين عام ٣٨ ه. وفي نفس السياق، يستغرب مالك بن نبي من إهمال المؤرخين لواقعة صفين، والتي شكلت-حسبه-منعطفا تاريخيا خطيرا، حيث قال: " ولست أدري لماذا لم ينتبه المؤرخون إلى هذه الواقعة التي حولت مجرى التاريخ الإسلامي إذ أخرجت الحضارة الإسلامية إلى طور القيصرية الذي يسوده العقل وتزينه الأبهة والعظمة في الوقت الذي بدأت فيه بوادر الفتور الدالة على أفول الروح". (بن نبي، شروط النهضة، ٢٠١٢، صفحة ٥٨)

ويعتبر ابن نبي تغلب الجانب العقلي على الجانب الروحي مؤشرا لانحطاط حضارة ما. ويضرب مثلا لذلك الحضارة الإسلامية التي فجرها الطاقة الروحية التي حملها القرآن الكريم، ولكن تغلب العقل وسيطرة الغريزة بعد ذلك على الجانب الروحي أدى إلى خلود هذه الحضارة إلى الأرض بسبب فقدانها للقوة الدافعة لها؛ وهي الطاقة الروحية.

ويذهب أبعد من ذلك، ليقرر الأسس الهامة المرتبطة بفعالية العقيدة الإسلامية: "أن الذي ينقصنا هو العمل بموجب العقيدة الإسلامية، الإسلام وحده هو الذي يمكن أن يعيد المسلمين إلى عالم الحضارة الخلاقة المبدعة، ويدخلهم في حلبتها، ولكن أن يعتبروا هذه العقيدة رسالة ضرورية لاغنى عنها، ولكن العقيدة لا يمكن أن تحرك الطاقات، إلا بقدر تسخيرها لحاجات أبعد وأسمى وأجل من الحياة اليومية، ونحن لا نرى لعقيدتنا هيمنة على طاقاتنا الاجتماعية، ولهذا فهذه الطاقات معطلة تماما، لأننا جعلنا الإسلام وسيلة للحياة الأخروية. بينما كانت في عهد الرسول عليه صلوات الله وأزكى سلام، وسيلة نجاة في الحياة الأخروية، وأيضا وسيلة المجدة والعزة والحضارة في الحياة اليومية". (الخطيب، ١٩٩٣، صفحة ١٢٩)

وفي إطار التكريس لنفس الأطروحة-أي الفكرة الدينية-نسوق هنا إشكالية علاقة الحضارة بالإسلام، هل

لمجرد كون الإسلام هو المركب الذي يختزن كل القيم المشكلة للحضارة، يعني أنه هو نفسه حضارة؟ أم أن الحضارة بالنسبة للمسلم منفصلة عن دينه؟

وجاء رد مالك بن نبي على هذا الإستشكال في سياق كتابه "مجالس دمشق"، بكون الإسلام ليس شيئا بسيطا حتى نكونه بأيدينا كما هي الحضارة من صنع البشر؛ الإسلام صنعه الله محفوظا في اللوح المحفوظ، كما أن الحضارة شيء يتكون وينمو ويعيش ويمتد ويزول﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (البلد: ١٠-١١)، بينما الإسلام لا تداوله الأيام، لذا فالإسلام شيء والحضارة شيء آخر. الإسلام أبدا لا يتغير في حرف واحد، ولو تغيرت البشرية كلها. أما الحضارات فتعتريها أمواج التاريخ تنشأ، تترعرع، تزهو ثم يأتيها الأفول. فلو كان الإسلام هو الحضارة. والإسلام والحمد لله مازال باقيا في قلوبنا وضمائرنا-لو كان هو الحضارة لما فتحنا مجالا للحديث. (بن نبي، مجالس دمشق، ٢٠١٣، صفحة ٦٤،٦٥)

ثم يضيف مالك بن نبي إلى سرديته هذه توسيعا دلاليا، يشير فيه إلى أن:" الإسلام هو القيمة الكونية العليا لكن الحضارة هي كفاءة المسلمين التاريخية في تبليغ الإسلام". (بن نبي، مجالس دمشق، ٢٠١٣، صفحة ٦٧) وبهذا فإنه يستبعد تماما إمكانية المقايسة بين الإسلام الذي هو وضع وترتيب إلهي لقيم متعالية، والحضارة التي تعكس استعداد وقدرة المؤمنين بالقيم على تفعيلها، في شكل رؤية للعالم ولمسائل الحياة. فإن نجحوا فقد تمثلوا ومارسوا وطابقوا بالنظر. أما إن فاتهم التفوق والظفر، فمرد ذلك العجز هو البون الشاسع بين المثل الأعلى الراقي وبين الإرادة المترهلة غير القادرة لاستيعابه.

كما عمد مالك بن نبي في إطار مقاربته الاستدلالية للمسألة، إلى التفريق بين مفهوم "الصلاحية" ومفهوم " الصحة"؛ فصحة الحقيقة الدينية شيء وصلاحيتها شيء آخر، حيث يقول في هذا الصدد: "كل حقيقة دينية، سواء تعلق الأمر بالمسيحية أو الإسلام، تنطوي على جانبين: الصحة والصلاحية، (الصدق والفعالية). فإذا كانت صحة حقيقتنا الإسلامية متعالية عن كل إهانات الزمن، فإن فعاليتها ليست كذلك". (بن نبي، في الحضارة والأيديولوجيا (نصوص غير معروفة)، ٢٠١٤، صفحة ٦٢)

لنخرج في نهاية هذا الطرح بمفاد دال على أن الحضارة عند بن نبي، ما هي إلا ترجمة تاريخية للعلاقة العضوية بين الفكرة الدينية وسندها المحسوس الذي هو الإنسان، فنجده يؤكد دائما -في إطار تفكيره السنني-على أهمية الفاعلية الإنسانية في التمكين للمبادئ والمثل التي جاءت بها الرسالة السماوية. ومع ذلك لا ينبغي أن يفهم من ذلك، أن غياب هذه الفاعلية يطعن في صحة الحقيقة الدينية، وقد ساق هو نفسه-أي مالك بن نبي-كلاما في غير موضع يؤكد على هذه الحقيقة، إذ قال: "فالإسلام لا يفقد صحته مهما تخلف المجتمع الإسلامي، لكن الإسلام يفقد صلاحيته إذا أغفل المسلمون طريقة استعماله أداة حضارة وعمل ". (بن نبي، مجالس دمشق، ٢٠١٣، صفحة ٤١) ويتدرج في نوع من التوالي التحليلي لينتهي إلى أن يضعنا أمام طبيعة الإسلام الذي يقرره كمنهج للتغيير، وفي هذا المعنى يقول: "قوة التماسك

الضرورية للمجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام ولكن أي إسلام؟ الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا والمنبعث في صورة إسلام حركي".

*** الدو ر الحضاري للدين عند مالك بن نبي**

إذا كانت هذه هي فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، فلسائل أن يسأل هنا: ما علاقة الدين بالتغيير الذي ننشده في كل مناحي الحياة؟ وماهي الكيفية التي يحول فيها الدين المجتمع من مجتمع بدائي إلى مجتمع تاريخي؟

إن الدين أو الفكرة الدينية بتعبير مالك بن نبي ينبغي النظر إليها من أوجه عدة؛ باعتبار الدور الذي تقوم به كعامل يؤثر في توجيه التاريخ من خلال تدخلها (أي الفكرة الدينية) في صياغة إنسان الحضارة وتوجيه القيم النفسية والاجتماعية، بمعنى أن ننظر إلى أثر الفكرة الدينية في الدورة الحضارية، معتمدين هذه المرة على الاعتبارات النفسية–الاجتماعية بالإضافة إلى الاعتبارات التاريخية؛ فالعنصر الديني بصفة عامة، فضلا عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون الأنا في الفرد وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الأنا. (بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ٢٠١٣، صفحة ٧٢)

وباعتبار أن بن نبي يبحث عن القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، فإنه يركز على الوظيفة الاجتماعية للدين. وهذا الأخير–في ضوء القرآن–له غايتان. فإن قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" [الذاريات:٥٦]، يبين أن الدين غايته أن يربط الأرض بالسماء. وهو حين ينشأ الشبكة الروحية التي تربط الفرد والمجتمع بالله، فإنه في الوقت نفسه يبني شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وأنه يؤدي نشاطه المشترك، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. وبعبارة أدق، فإن الفكرة الدينية وفق المنظور المالكي لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمها الغيبية، إذن فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان، في صورة القيمة الأخلاقية. فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية من الوجهة التاريخية على أنها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان حركة تطور اجتماعي واحد. (بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ٢٠١٣، صفحة ٥٦)

وفي سياق متصل وتأكيدا للفهم السابق، فإن اهتمام مالك بن نبي بالأخلاق لم يكن من الزاوية الفلسفية ولكن من الناحية الاجتماعية. حيث يقول: "وليس المقصود هنا تشريح مبادئ خلقية، بل أن نحدد (قوة التماسك) اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد، والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة .وتستخدم القبائل الموغلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمع، والمجتمع الذي يتجمع لتكوين حضارة، فإنه يستخدم نفس الغريزة، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية.هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ

أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (الأنفال: ٦٣)" ويستطرد قائلا : "ومن العجب أن نجد اتفاقا له مغزاه ودلالته بين ما توحي به هذه الآية، وبين معنى كلمة Réligion؛ فالدين هي أصلها اللاتيني فهي تعني هنالك الربط والجمع". (بن نبي، شروط النهضة، ٢٠١٢، صفحة ٨٨)

وفقا للطرح أعلاه، فإن أول عمل يقوم به المجتمع رهين الفكرة الدينية ساعة ميلاده هو بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، ويضرب لنا مالك بن نبي لذلك مثلا بميلاد المجتمع الإسلامي في المدينة، حيث آخى* الرسول صل الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار. وعلى العكس من ذلك، عند أفول المجتمع تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، ويستشهد بن نبي هنا بالحديث الشريف: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت". (بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ٢٠١٣، صفحة ٢٩)

فمؤشرات الوهن الحضاري، ومسبباته، كما أشار إليها الحديث: حب الدنيا الذي يعني: العب من متعها واللهاث وراء زينتها، واستهلاك أشياءها، والتزاحم على الحقوق. ويمكن تلخيص ذلك كله بالانتهاء إلى مرحلة الاستهلاك وظهور الإنسان الاستهلاكي الذي يتجاوز حقه في الأخذ، ولا يحس بواجبه. أما كراهية الموت الذي هـــو العنصر الآخر للوهن الحضاري، فيعني: انكماش فكرة الاحتساب، وغياب روح الإيثار والتضحية، وعدم استشعار الواجب، والقعود عن العمل والإنتاج، والاقتصار على الاستهلاك. (سفر، ١٩٨٩، صفحة ٩)

بناء عليه، فإن أهم تغيير يحدثه الدين في المجتمع هو قيامه بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة. وبهذا التشكيل يجعل الدين من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية ويجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل، ومن التراب –الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط–مجالا مجهزا مكيفا تكييفا فنيا يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج. ويتجلى دور الدين الفعال المتمثل في تركيب القيم الاجتماعية وبقية عناصر الحضارة عندما يكون الدين في حالة قوته وانتشاره، وعندما يعبر عن فكرة جماعية، أما حينما يصبح الدين إيمانا جذبيا في شكل نزعة فردية دون إشعاع فإن رسالته التاريخية تنتهي على

* يستوقفنا هنا التمييز الذي يقيمه مالك بن نبي في استعماله لمصطلحي الأخوة والمؤاخاة، خاصة إذا علمنا دقة بن نبي في تخير مصطلحاته، بالنظر إلى دقة ووضوح الهدف النهضوي الذي نذر حياته له، ما يجعلنا نعتقد أن الأمر لم يكن مجرد اختيار لغوي، حيث يقول:" وما كان لثورة إسلامية أن تكون ذات أثر خلاق، إلا أذا قامت على أساس "المؤاخاة" بين المسلمين، لا على أساس "الأخوة"، وفرق بين "المؤاخاة" و "الأخوة"، فإن الأولى تقوم على فعل ديناميكي، بينما الثانية عنوان على معنى مجرد، أو شعور تحجر في نطاق الأدبيات". وفي الاتجاه التكريسي ذاته يحيلنا إلى أن: "المؤاخاة الفعلية، هي الأساس الذي قام عليه المجتمع الإسلامي... مجتمع المهاجرين والأنصار". ينظر : مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الطبعة الأولى، دار الوعي، الجزائر، ٢٠١٣، الجزء الأول، ص ص٥٠،٥١.

الأرض؛ إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها. (بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ٢٠١٣، صفحة ٣٢)

تسوقنا أتون الحديث عن الوظيفة الاجتماعية للدين، للتأكيد على أن مالك بن نبي يرى أن هذا الضرب من التفاعل الاجتماعي، لا يمكن أن يتم في غياب التغيير الداخلي للإنسان: "وأول شيء في هذا الطريق هو تكوين نظام الانعكاسات الذي يغير سلوك الفرد، وهذا التغيير النفسي، هو الذي يسهل حياة المجتمع، وهو أيضا الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي، أليس ذلك وارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)" لخلق الفرد/ الشخص* القادر على تحمل المسؤوليات الحضارية الملقاة على كاهله.

وفي إطار تحليله لتأثير الفكرة الدينية في تشكل الظاهرة الحضارية يشير مالك بن نبي إلى: "أن الحضارة تولد مرتين، أما المرة الأولى فميلاد الفكرة الدينية. وأنا الثانية، فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ"، (بن نبي، شروط النهضة، ٢٠١٢، صفحة ٥٥) وبهذا فإن مالك بن نبي يتحدث عن المظهر الثقافي للفكرة الدينية، أي بعد تركيبها في النفوس وتحولها إلى قيمة ثقافية وسلوكية يمكن تحديدها وقيامها في الواقع الاجتماعي والثقافي من حياة المجتمع، من خلال درجة الفعالية المرتبطة بها كدافعية للسلوك أو ما يصطلح عليه مالك بن نبي بالإطراد الحضاري، والذي ينظر إليه: "باعتباره صورة زمنية لكل فعل وردود الأفعال المتبادلة، والتي تتولد منذ مطلع هذا الاطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبعث فيه الحركة والنشاط". (بن نبي، مشكلة الثقافة، ٢٠٠٩، صفحة ٦٧)

ولأن الإنسان هو الأداة العملية للحضارية والاجتماعية، فإنه يكون في هذه المرحلة في أعلى درجات التوتر الإيجابي والعطاء الاجتماعي، وهو ما يسمى بالفعالية التي يصبح معها الفرد أمة، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } (النحل: ١١٩)، (بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ٢٠١٣، صفحة ١٧)أي أن بناء العالم الروحي للإنسان جوهره الفعالية الفردية التي تقود إلى فعالية المجتمع. ولا يتوانى على إطلاق مصطلح التوتر الداخلي، لأنه يريد الإشارة إلى حساسية صاحبه ودفعه إلى مربعات الفعالية.

ويذهب أبعد من ذلك، إذ نجده قد أفرد فصلا كاملا في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" والموسوم بـــ "الطاقة الحيوية والأفكار"، للحديث عن تأثير الطاقة الحيوية للفرد على تطور المجتمع. ويقرر لنا حقيقة مفادها أن الفكرة لا تقوم بدورها في التغيير الاجتماعي، إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمها الغيبية، بمعنى بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية؛ ولإثبات ذلك، يعقد لنا مالك بن نبي مقارنة بين المجتمع الإسلامي في بداية تشكله والمجتمع الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية في محاولتهما لتشريع قانون لمحاربة الخمر، وهذا لمعرفة قدرة التشريعين على التكيف، باعتبار أنهما مرا بنفس المراحل. ليخلص إلى نتيجة مفادها أن تحريم الخمر في المجتمع الأمريكي أدى إلى موجة من العنف

* نشير هنا إلى أن مالك بن نبي يرى أن العمل الأول الذي يغير الفرد كونه فردا (Individu) إلى أن يصبح شخصا (Personne) وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع. ينظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص٣١.

والرفض ترتب عنها في النهاية الغاء القانون واستئصال فكرة التحريم نهائيا من عالم الثقافة في المجتمع الأمريكي. بينما نجد في المقابل، أن الفكرة لم تثر أية صدمة في المجتمع الإسلامي الناشئ، وأنه رغم تراجعها راهنا، إلا أنه لم يطردها من عالمه الثقافي، ولازالت تلعب دورا في الالزام الاجتماعي، رغم أنها لم تكن لها قوة القانون كما في البلاد الغربية. (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ٢٠١٢، صفحة ٥٣،٥٤)

فالحضارة في مستوى الثقافة، أي بما هي في ميزانية التاريخ ليست رصيدا من الكلام بل كتلا من النشاط المادي ومن الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه، وهذا الميزانية الفكرية المكونة من صنوف النشاط الإيجابي هي في الحقيقة ميزانيات من القيم الثقافي تقوم على فصول الثقافة الأربعة: منهجها الأخلاقي، وفلسفتها الجمالية، وفنها الصناعي، ومنطقها العملي. (بن نبي، مشكلة الثقافة، ٢٠٠٩، صفحة ١١٢)

والثقافة وفق المنظور المالكي هي روح الحضارة، لذا تأتي دالة على الحضارة من باطنها، أي في بعدها الروحي بتجلياته، المتضمن للجوانب الأربعة (أخلاق، جمال، فعالية، صناعة)، فكل واقع اجتماعي أو ناتج حضاري هو في جوهره مركب من هذه العناصر... تتمثل عند انطلاقها في صورة هيكل مكون من القوى الأخلاقية والعقلية، ومن الطاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهي في غايتها باعتبارها حضارة يجب أن تتمثل في تركيب هذه القوى الأخلاقية". (بن نبي، مشكلة الثقافة، ٢٠٠٩، صفحة ١٠٤)

إلا أن هذه الحتمية محدودة بل مشروطة، لأن اتجاه التطور وأجله يخضعان لعوامل نفسية زمنية، يمكن للمجتمع المنظم أن يعمل في نطاقها حين يعدل حياته، ويسعى نحو غاياته في صورة متجانسة منسجمة. (بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ٢٠١٣، صفحة ٢٨)يتواطأ فيها جميع الأشخاص ضمن الترقيات المتنوعة في الجري إلى الهدف المعين من طرف الجماعة نفسها، صبيحة التعاقد الممضي بينهم، في شكل اتفاق مدني ذي خصوصيات قانونية، أو مؤاخاة أخلاقية جذرها العميق مغروز في تربة سماوية مقدسة ومتعالية بحمولة أو تراحمية وجدانية، ثم بالالتزامات الوازع من خارج. "فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلا وشاهدا، وينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل؛ بالجزيء المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل، لم بقدم لوجوده أساسا روحيا، أو أساسا ماديا. (الحاج أحمنة، ٢٠٢٤، صفحة ١٥٦)

وبهذا يأخذنا مالك بن نبي في نوع من التمشي التحليلي إلى صورة شمولية هي أن كل تفكير في مشكلة الحضارة هو تفكير في مشكلة الإنسان؛ فهذا الأخير في المحصلة هو جملة القيم والمبادئ، وهذا يمكننا من فهم درجة متانة شبكة العلاقات الاجتماعية أو رخاوتها. بمعنى آخر، ما مدى التوافق بين درجة التوتر الأخلاقي ودرجة إشعاع الفكرة الدينية، فإن المجتمع سيتسم بصورة الوحدة والاندماج والانسجام الكلي بين مجموع أفراده، وعليه يمكن اعتبار التوحيد كمبدأ ديني هو المبدأ القيمي والاجتماعي الذي يحافظ على وحدة المجتمع وعلى صيرورته عبر التاريخ. أما العكس

فالمجتمع آيل إلى الكارثة إلى التقويض والعدمية. (الشمري و يايوش، ٢٠١٧، صفحة ١١٠)

وعودا على بدء، وبالرجوع إلى المعادلة الأولى (حضارة= إنسان+ تراب+ وقت)، يؤكد مالك بن نبي أن الإنسان هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة، لأن التراب والوقت لا يقومان-إذا اقتصرت عليهما فحسب-بأي تحويل اجتماعي، (بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، ٢٠١٦، صفحة ٧٥) كون العناصر الحضارية الأخرى (أي التراب والزمن) صامتة لا تنطق إلا بلسان الإنسان، وهو من يعطيها دلالة وقيمة، وكل بناء سليم للإنسان تربويا وثقافيا يعني بالضرورة إكساب الزمن والتراب الشرطية والقيمة الحضارية، ويجب أن نلاحظ أن الحضارة الإسلامية انتهت منذ الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان، وليس من التطرف في شيء القول، بصفة عامة أن الحضارة تنتهي عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان، ثم يسوق لنا مثلا على تأثير الإنسان في الأحداث التي أعقبت سقوط الدولة الموحدية على مسيرة الأحداث التاريخية الإسلامية: "فإذا نظرنا إلى هذا الوضع نظرة اجتماعية، وجدنا أن جميع الأعراض التي ظـــهرت في السياسة أو في صورة العمران، لم تكن إلا تعبيرا عن حالـــة مرضية يعانيها الإنسان الجديد - إنسان ما بعد الموحدين - الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، والذي كان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين". (بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ٢٠١٣، صفحة ٣٧)

فالنقائص التي تعانيها النهضة الآن، يعـــود وزرها إلى ذلك الرجـــل الذي لم يكن طليعة في التاريخ، فنحن ندين له بمواريثنا الاجتماعية، وبطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي، ليس ذاك فحسب، بل إنه يعيش الآن بين ظهرانينا، وهو لم يكتف بدور المحرك الخفي الذي يدفعنا إلى ما ارتكبناه من خيانة لواجبنا، وأخطـــاء في حق نهضتنـــا، بل لقد اشترك معنا في فعلنا، لم يكتف بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي، فبلغنا ذاته أيضا.

فالقضية إذن ليست قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية كانت في أنفسنا، إن علينا أن ندرس أولا الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان؛ فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ. ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ، فنرى المجتمع حيناً يزخر بوجود النشاط وتزدهر فيه الحضارة، وأحيانا نراه ساكنا لا يتحرك يسوده الكساد وتغمره الظلمات. (بن نبي، تأملات، ٢٠٠٩، صفحة ١٢٩)

ولتبيين الفرق بين العلم الحقيقي القادر على نقل الإنسان لدائرة التحضر يبين مالك بن نبي أن الإسلام وفر المناخ والنفسي والروحي والاجتماعي المناسب لنمو العلم وازدهاره. فالقرآن الكريم لم يحمل أسرار صناعة الذرة أو غزو الفضاء، ولكنه بث آياته روح وحركية العلم، على العكس من التوراة التي ابتدأت في سفر التكوين على توضيح الظاهرات المادية، والإنجيل الذي استفتح على عملية تجسيد الأقانيم

الثلاثة، فإن القرآن الكريم بدأ بالعلم والحث عليه، وبذكر أدواته ومناخه الملائم.

*** خاتمة**

والنتيجة لكل ما سبق، أن المحرك الأساسي للتاريخ هو الدين، وكأن مالك بن نبي أراد أن يوقفنا على فلسفته الخاصة بالتاريخ، على أنها قائمة على أساس ديني توحيدي؛ فالحضارة –حسبه–مجموع يدرك غايته وينتج لها وسائلها، ويدفع أفراده ويحفز إرادتهم ليفعلوا بقدرتهم في محيطهم الطبيعي/ الكوني، استهداء بالقيم العلوية المتجاوزة، وبذلك يلتئم الجسد بالروح، أي المجتمع والقيم، فتظهر الحضارة لأنها اطراد واحد في تكامل وانسجام الطاقة الحيوية، وفي ظل نطاق مجال التغيير النفسي وهو البيئة والتراب أي المادة المسخرة لنشاطه ثم الزمن الذي في إطاره تتحقق فاعلية الإنتاج.

*** المراجع**

ذواق الحاج أحمنة. (٢٠٢٤). متتالية الفكرة الحضارية في المشروع النهضوي عند مالك بن نبي. الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع.

بدران بن مسعود بن الحسن. (١٩٩٩). الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري (أنموذج مالك بن نبي. قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: كتاب الأمة، العدد (٧٣).

بن نبي ,م .(2013) .وجهة العالم الإسلامي .(Vol. 1) ع) .ا .شاهين (.Trad ,الجزائر ,دار الوعي :دار الوعي للنشر والتوزيع.

بوكروح ,ن .ا .(2016) .جوهر فكر مالك بن نبي .(Vol. 2ع) .ا .حسان (.Trad ,الجزائر ,دار سمر للنشر والتوزيع.

ذواق، ,ا .أ .(2024) .متتالية الفكرة الحضارية في المشروع النهضوي عند مالك بن نبي .الجزائر ,ابن النديم للنشر والتوزيع.

زكي ميلاد. (١٩٩٨). مالك بن نبي ومشكلات الحضارة – دراسة تحليلية ونقدية. دمشق: دار الفكر.

سليمان الخطيب. (١٩٩٣). فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي–دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

عمر النقيب. (٢٠١٧). مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي. الجزائر، شركة الأصالة.

غازي الشمري، و جعفر يايوش. (٢٠١٧). مالك بن نبي بين التمثل والإبداع. سوريا: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.

مالك بن نبي. (٢٠١٣). ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية. الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع.

مالك بن نبي. (٢٠٠٠). الظاهرة القرآنية. (عبد الصبور شاهين، المترجمون) دمشق، دار الفكر.

مالك بن نبي. (٢٠٠٠). القضايا الكبرى. دار الفكر: دمشق.

مالك بن نبي. (٢٠٠٩). تأملات. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (٢٠٠٩). مشكلة الثقافة (المجلد ١٤). (عبد الصبور شاهين، المترجمون) دمشق، دار الفكر.

مالك بن نبي. (٢٠١٢). شروط النهضة. (عمر مسقاوي، عبد الصبور شاهين، المترجمون) الجزائر، دار الوعي للنشر والتوزيع.

مالك بن نبي. (٢٠١٢). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (المجلد ١١). (بسام بركة، أحمد شعبو، المحرر) الجزائر، دار الوعي للنشر والتوزيع.

مالك بن نبي. (٢٠١٣). مجالس دمشق. الجزائر، دار الوعي للنشر والتوزيع.

مالك بن نبي. (٢٠١٤). في الحضارة والأيديولوجيا (نصوص غير معروفة). (محمد بغداد باي، المترجمون) الجزائر، عالم الأفكار.

مالك بن نبي. (٢٠١٦). فكرة كمنويلث إسلامي. (الطيب الشريف، المترجمون) دمشق: دار الفكر.

محمود محمد سفر. (١٩٨٩). دراسات في البناء الحضاري. قطر : رئاسة الشؤون الدينية والمحاكم الشرعي.